ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

سيرة شخصية نسائية من نساء صدر الإسلام
عائشة بنت طلحة التيمية "سيدة العفاف والحرية"

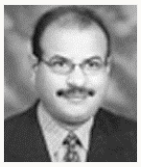

أ.د. أحمد السري
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
جامعة صنعاء
الجمهورية اليمنية

مُلَخّصْ

يعالج هذا البحث سيرة شخصية نسائية من نساء صدر الإسلام، رويت لها أخبار كثيرة في كتب الأدب والتاريخ، وتناولتها أقلام معاصرة من زوايا متعددة، بغرض التعريف تارة والتشهير أخرى. ويعد هذا البحث بحثا أكاديميا يقوم على استعمال منهج التحليل التاريخي للتحقق من الأخبار المروية لاستخلاص صورة تاريخية أقرب إلى الواقع وتحليل أسباب الزيادات والمبالغات التاريخية التي تنشئ تصورات مضللة عن الشخصية نفسها أولاً وعن نساء صدر الإسلام ثانيًا. ثم يستكمل البحث دوره في إبراز صور اجتماعية عاشتها عائشة بنت طلحة يراد من خلالها تصحيح التصورات عن الحياة الاجتماعية لصدر الإسلام، وهي التصورات التي تشيعها بعض الاتجاهات الفقهية أحيانًا، أو هواة الأدب الشعبي في أحيان أكثر. ومع ذلك فقد تم استعمال ما ظهر أنه مختلق وغير تاريخي في تحليل الذهنية الثقافية يومئذ، بحسبان أن الاختلاق والكذب واقع تاريخ أيضًا. وقد أمكن من خلال شخصية عائشة بنت طلحة وأخبارها الكثيرة والمتنوعة تقديم صور مغايرة لما يشيع غالبًا عن الحياة الاجتماعية للمسلمين في القرن الأول الهجري. ومن بين أبرز نتائج البحث هو تنقية أخبار عائشة من المبالغات التاريخية والخروج بصور واقعية تقوم على الفحص والنقد والتحليل، ثم استعمال تلك الصور في إبراز مشاهد متنوعة من التاريخ الاجتماعي لصدر الإسلام تسهم في التعرف عليه على نحو أدق وأعمق مما يشيع عنه، من ذلك: التنوع في أشكال الظهور الاجتماعي للمرأة وبداهة السفور والمحادثات المشتركة بين النساء والرجال، والتباهي بمواكب الحج، وشيوع أخبار الهوى في إطار اجتماعي تلقائي غير مثقل بالمحرمات والعيوب مع سيادة أشكال العفاف والابتعاد عن المنكرات الصريحة. وكل هذه الصور تخدم في الخلاصة تصحيح التصورات عن صدر الإسلام وأهله، وتظهر أهمية دراسات التاريخ الاجتماعي لصدر الإسلام دراسة علمية صرفه، وهي التي ستبين مستويات التقارب والتباعد بين ثقافة مجتمعاتنا المعاصرة وثقافة صدر الإسلام، وستكشف مستويات إسقاط معايير ثقافتنا المعاصرة على زمن لا يشبه ما نحن عليه اليوم في مواقفنا إزاء المرأة ومجالها الاجتماعي.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٥	أكتوبر	٢٠١٦
تاريخ قبـول النشـر:	٢٣	فبراير	٢٠١٧

كلمات مفتاحية:
تاريخ المرأة، عائشة التيمية، نساء المسلمين، صدر الإسلام، التاريخ الاجتماعي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0053265

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
أحمد السري، "سيرة شخصية نسائية من نساء صدر الإسلام: عائشة بنت طلحة التيمية سيدة العفاف والحرية".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الواحد والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٨. ص٢٣ – ٣٦.

مُقَدِّمَةٌ

هناك سير لبعض النساء المسلمات في صدر الإسلام تستحق التوقف عندها، لما تبرزه من صور اجتماعية لم نعد نألفها أو نصدقها، ومن تلك السير، سير عائشة بنت طلحة التيمية. فقد روت لها المصادر أخبارًا كثيرة تظهر فيها ذات شخصية مستقلة ونافذة، وتدور حولها أخبار الهوى والحسن، وتسابق أكابر القوم للزواج منها. وفائدة الاطلاع على هذه السير الاستثنائية هي أنها توقفنا على ثقافة عصر الإسلام الأول، وكيف امتدت ثقافة الجاهلية فيه، وصارت جزءًا منه، طالما لم يرد نهي شرعي بشأنها، بل توقفنا -وهو المهم- على العلاقة بين موجبات الشرع وتلقائية الثقافة التي ظلت مستقلة عن الشرع، فاختلط الثقافي بالشرعي

في القرون التوالي وطالت قوائم التحريم والاحترازات الخاصة بالمرأة حتى كبلتها نهائيًا.

في سيرة عائشة بنت طلحة سنقف على الموقف من الحجاب والسفور، وطبيعة مواكب الحج يومئذ، وما يجري فيها من غزل وتَظَّرُف، وأثر الهوى في تعطيل بعض الفرائض، وطبيعة العلاقات بين الرجل والمرأة عامة، وقبول تدخل الرجال في حل الخلافات بين الأزواج، وعلى عادات الخطبة للزواج، وغيرها من الأخبار التي تظهر بيئة اجتماعية حرة وتلقائية، بعيدة عن سطوة الدولة، وغير مثقلة بقوائم التحريم والممنوعات. ومع أن أخبار عائشة التيمية منتشرة هنا وهناك، إلا أنها لم تخضع بعد -حسب علمي - لبحث أكاديمي يستقصي كل أخبارها ويضعها في السياق التاريخي لاستخراج صور اجتماعية لصدر الإسلام. والبحث لن يستعرض فقط ما روته المصادر من أخبار، بل سيناقش الخبر ويحلل الروايات ويرجح المقبول، ويخرج بخلاصات، كما هي العادة في الأبحاث التاريخية.

١-تعريف

هي بنت الصحابي (طلحة بن عبيد الله التيمي)، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، وخالتها عائشة أم المؤمنين (رض). عالمة بأخبار العرب وذات شهرة وحضور. ولا يعرف لها تاريخ ميلاد مثل معظم معاصريها، لكن المصادر تعطي لها تاريخ وفاة بلا اتفاق، فمن قائل أنها توفيت سنة ١٠١، وآخر يقول ١١٠، وثالث يقول ١٢٣ للهجرة. ويظهر أن سنة ١١٠هـ، هي الأرجح.

تزوجت ثلاثة أزواج ولم تنجب إلا ولدًا واحدًا هو عمران، وتكنت به، وكان أبوه (عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق). وتذكر مصادر أخرى أنها أنجبت أربعة أولاد وبنتا. ويظهر أن خبر الولد الواحد هو الأرجح، إذ لا أثر حتى لهذا الولد الواحد في سيرتها فيما ورد من أخبار، رغم غنى سيرتها وتنوع مشاهدها. في سيرة عائشة الكثير من الصور الاجتماعية المرتبطة خاصة بحالة اليسار والترف وأثر ذلك على الحياة الاجتماعية، وصلته بالأوضاع السياسية. عاصرت عائشة بنت طلحة (سكينة بنت الحسين) المشهورة أخبارها مع الأدب والأدباء ومجالس الغناء، بل كانت ضرة لها[١]، إذ كانتا زوجتين لمصعب بن الزبير الذي جمع، كما تقول الروايات، بين أجمل امرأتين في عصره، وهما ممثلتان جيدتان للفئة الأرستقراطية في قريش بالحجاز، إذ كان لوفرة المال يومئذ أثره في تطوير بعض العادات الاجتماعية أو خلق عادات جديدة، كما سنرى في سيرة عائشة بنت طلحة.

اشتهرت عائشة بنت طلحة بشخصية بارزة فرضت احترامها على معاصريها، بالإضافة إلى اشتهارها بالعفة والجمال ووقوع المشهورين من الرجال في حبها والتغزل بها، مثل شاعر الغزل الشهير عُمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد المخزومي، الذي ولى إمارة مكة لعبد الملك بن مروان، فنحن مع عائشة الآن في النصف الثاني من القرن الأول الهجري. وإلى جانب شخصيتها البارزة وحضورها الاجتماعي، اشتهرت كذلك بشراسة الخُلُق جريا، كما تذكر الروايات، على سنة نساء بني تيم المعروفات بذلك. وقد قصدوا بشراسة الخلق عدم الخضوع لرغبة الأزواج وإطالتها أمد الخصام معهم إلى حد أن الروايات تذكر بعضًا من مشاهير عصرها تدخلوا للمصالحة بينها وبين أزواجها[٢].

استحقت عائشة عند ابن سعد في "طبقاته" مكانا بين اللاتي روين عن زوجات الرسولﷺ، فذكر أنها روت عن عائشة أم المؤمنين خالتها، وسوى هذا الخبر، وذكره لأزواجها، لا يورد ابن سعد من أخبارها الكثيرة والمثيرة شيئا. أما ابن حجر فأورد لها ذكرا مقتضبا في "تهذيب التهذيب"، وهو الكتاب الذي يترجم لرواة الأحاديث، وقال عنها: "مدنية تابعية ثقة وقال عنها أبو زرعة الدمشقي حدث عنها الناس لفضلها وأدبها وذكرها ابن حيان في الثقات[٣]".

٢-عائشة والسفور

أول الصور الاجتماعية التي نقف عليها في سيرة عائشة بنت طلحة هي أنها لم تكن تستر وجهها من أحد، وتذكر الروايات أن زوجها مصعب بن الزبير حاول مرارًا إقناعها بالتحجب وأكثر من عتابها في ذلك فأجابته بما يلي: "إن الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلي عليهم فما كنت لأستره، ووالله ما في وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد[٤]". وذكر ابن الجوزي عن أنس ابن مالك أنه قال لعائشة بنت طلحة: "إن القوم يريدون أن يدخلوا إليك فينظروا إلى حسنك؟ قالت: أفلا قلت لي فألبس ثيابي[٥]"، والقصد أن تلبس أجمل ثيابها وتتزين، فلا يدخلون عليها بمألوف ثياب البيت.

وأفاد صاحب العقد الفريد إن أبا هريرة، راوية الأحاديث المشهور، نظر إلى عائشة بنت طلحة فقال: "سبحان الله ما أحسن ما غذَّاك أهلك! والله ما رأيت وجها أحسن منك إلا معاوية على منبر رسول الله[٦]". أما الأصفهاني فيروي أن أبا هريرة قال لعائشة بنت طلحة: "ما رأيت شيئا أحسن منك إلا معاوية أول يوم خطب على منبر رسول الله (ﷺ)، فقالت والله لأنا أحسن من النار في الليلة القرة في عين المقرور[٧]". ولا توضح هذه الروايات الظروف التي قال فيها أبو هريرة هذا الكلام، وهناك رواية في الأغاني يبدو أن الأصفهاني يوردها وهو شاك

بها لأنه يبدأها بالزعم: "زعم بكر بن عبدالله بن عاصم مولى عرينة عن أبيه عن جده: أن عائشة نازعت زوجها إلى أبي هريرة فوقع خمارها عن وجهها فقال: سبحان الله، ما أحسن ما غذَّاك أهلك، لكأنما خرجت من الجنة[٨]". وهذه الرواية تفيد عدم سفور عائشة، وهو ما يتناقض مع ما ورد من قولها لمصعب بأنها لن تحتجب. ويبدو أن شك الأصفهاني ينسحب على هذه الجزئية من الرواية التي تريد إثبات خمار لعائشة. وهناك رواية أخرى تصور عائشة خارجة من بيتها وتمر بجانب المسجد وعليها ملحفة فيراها أبو هريرة فيثني على حسنها، تقول الرواية: "صارمت عائشة بنت طلحة زوجها وخرجت من دارها غضبى، فمرت في المسجد وعليها ملحفة تريد عائشة أم المؤمنين، فرآها أبو هريرة فقال: سبحان الله! كأنها من الحور العين"[٩]. وعند البلاذري الأقدم (ت ٢٧٩هـ) أنه قال: "سبحان الله، سبحان الله، ما أحسن ما غذَّاك أهلك، ما رأيت وجها أحسن منك".[١٠] هذه الروايات تفيد أن عائشة خرجت ملتحفة وحرة الوجه، أي سافرة، وإلا فلا موجب لتعليق أبي هريرة المذكور.

ومن مجموع الروايات يتضح أن سفور عائشة ثابت ومشهور، لشيوع الخبر في الروايات وفي كثير من المصادر قبل الأغاني وبعده، وهو خبر يعرض يتيما أحيانا وبسياق تاريخي أحيانا أخرى، كما في خروجها ملتحفة ومرورها أمام المسجد. ومع ذلك لا ندري إن كان هذا السفور هو حال عائشة على الدوام أم كان حالها في زمن ما، أم كانت متقلبة بين سفور وحجاب وفق ما عن لها في وقته وحينه. خبر السفور الشهير هذا، ورفضها ستر وجهها، متصل بموقف زوجها الثاني مصعب بن الزبير فقط، وهناك رواية واحدة يوردها المبرّد (ت. ٢٨٦هـ) فيها أن عائشة اشترطت على مصعب قبل الزواج ألا تستر وجهها وقالت: "لا أخفي ما رَزَقَنِيهُ الله من الجمال"[١١]. لكن الروايات المتصلة بمالك بن أنس وبأبي هريرة تبدو أقدم زمنيا فهي أولا في المدينة وفيها ذكر لمنازعة عائشة زوجها الأول ابن خالها إلى أبي هريرة في المدينة. وكانت عائشة من أهل المدينة قبل أن يصحبها زوجها مصعب إلى العراق، حين صار أميرًا هناك لأخيه عبد الله ابن الزبير الذي أعلن نفسه خليفة في الحجاز، فبايعه من بايع ونازعه من نازع واستمرت خلافته تسع سنوات، من ٦٤ إلى ٧٣ للهجرة.

ومؤدى الروايات كلها، حتى مع احتمال الشك بنسبة الأقوال إلى من نسبت إليهم، هو أن عائشة بنت طلحة كانت مقتنعة بسفورها وجمالها وبعفتها، وترى أنها تبرز نعمة من نعم الله فيها، ولا مدخل لأحد كي يعيب عليها في شيء. ولم ترد في سياق هذه الرواية أية ملاحظات شرعية بل سيقت وصفا لسلوك اجتماعي مألوف إذ التنقب والسفور من عادات العرب في الجاهلية والإسلام، والشعر الجاهلي يمثل هذه الاتجاهات خير تمثيل[١٢]. ومما يعزز أن السفور والنقاب سلوك اجتماعي ما روي عن أبي هريرة ومالك بن أنس في هذا السياق، وهما من هما في رواية الأخبار والاشتغال في الفقه. فرغم الشك ببعض تفاصيل الرواية وما فيها من إخراج مسرحي مثل القول المنسوب لمالك بن أنس "إن القوم يريدون الدخول عليك لينظروا إلى حسنك"، لأنه قول يأباه الذوق القديم والمعاصر، إلا أن ارتباط إبراز الحسن والقبول به بل والثناء عليه بشخصيتين مثل أبي هريرة ومالك بن أنس، لا يعكس أكثر من بيئة بريئة تلقائية آمنة من المنكرات، كما يعكس ظُرْفًا اجتماعيا وقبولاً بدهيا بالحديث عن الجمال، وهو حديث دائم في المجتمعات كلها، وقد استوعبته كتب الأدب وفصلت فيه للرجال والنساء، ولا تثريب في ذلك[١٣]. لقد كانت حالات السفور والحجاب من عادات العرب قبل الإسلام، وكان يقع السفور اعتدادا بالجمال والعفة وحب الشهرة بالشعر، كما كان يقع تحرزا من الشعراء كي لا يبتذله الوصف. وهي حالات اجتماعية متلازمة في المجتمع الواحد رصدها الشعر الجاهلي. وقد امتدت حالات السفور والحجاب في الإسلام كعادات اجتماعية متعاصرة، وسفرت بعض نساء المسلمين الشهيرات ومنهن عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين لاسيما وقد وقر في الوعي أن الحجاب إنما كان لنساء النبي خاصة. وقد ظل الباعث على السفور في الإسلام كما في الجاهلية هو الزهو بالجمال والاعتداد بالتصون والاعتزاز بالعفة[١٤]

وتعزيزًا لشواهد حالات السفور والحجاب المتعايشة بانسجام كوجه من وجوه الثقافة لا الشرع، نورد ما روي من أخبار عن عائشة في موكب الحج، فقد وردت روايات عن عائشة في حجتها لا تتحدث صراحة بل ضمنا، تفيد تغطيتها لوجهها رغم معرفة محيطها بها لسفورها الشائع كما مر. وتفيد الرواية أن الشاعر المشهور عمر بن أبي ربيعة باغتها سافرة في الطواف وهي تريد أن تستلم الركن، فبهت لما رآها ورأته: "وعلمت أنها قد وقعت في نفسه، بعثت إليه بجارية لها وقالت: قولي له اتق الله ولا تقل هجرا، فإن هذا مقام لا بد فيه مما رأيت. فقال للجارية: إقرئيها السلام وقولي لها: ابن عمك لا يقول إلا خيرًا[١٥]".

وقد يكون السفور مؤقتا، فرغم أن الإحرام يقتضي السفور لانتشار عادة النقاب، إلا أن خمار أو نقاب بعض النساء ومنهن عائشة في محيط الحج، قبله أو بعده أو في الطريق، قد غدا هو الآخر عادة اجتماعية مرتبطة بموسم الحج. ويفيد خبر عائشة مع الشاعر عمر بن أبي ربيعة أنهما يعرفان بعضهما قبلا، وأن المباغتة الآن ليست إلا لاستثنائية المقام. وفي قولها: "فإن هذا مقام لا بد فيه مما رأيت" ما يدعم ما ذهبنا إليه، وهو تلازم

عادات السفور والحجاب وتعايشها بوصفها عادات اجتماعية لا تطبيقات شرعية.

وبناءً عليه لا ينبغي الحرص على تكذيب هذه الرواية أو تلك للخروج بصورة اجتماعية واحدة، بل إن تنوع الروايات لاسيما تلك المرتبطة بشخصية واحدة كعائشة بنت طلحة الآن مثلاً، هو دليل صدق الروايات في نقلها للواقع الاجتماعي المتنوع بتلقائية بريئة. ونضيف دليلاً آخر على تنوع السلوك الاجتماعي، وهو ما ترويه المصادر عن فقيه(١٦)، رأى عائشة بنت طلحة سافرة وهي تطوف بالبيت فسألها من أنت فأجابت:

من اللاءِ لم يحججن يبغين حسبة ولكن ليقتلن البريء المغفلا

ولا يظهر في هذه الإجابة الورع الذي أظهرته أمام ابن أبي ربيعة بحديثها عن المقام الخاص، بل راق لها هنا أن تأتي بإجابة فيها دعابة وتظرف، وأنها إنما حجت لتقتل بجمالها وسحرها الأبرياء والمغفلين الذين ينظرون إلى الجمال فتقتلهم الحسرة لأنهم لا ينالوه. والبيت أعلاه يرد في قصيدة للشاعر الغزلي العُرجي(١٧) اشتهر منها بيتان هما:

أماطت كساء الخفر عن حر وجهها
وأدنت على الخدين بُردا مهلهلا
من اللاء لم يحججن يبغين حسبة
ولكن ليقتلن البريء المغفلا

ويذكر مرجع حديث إن هذا اللون من الشعر: "كان يفتن النساء ويطربهن، ويذهب بعقولهن وقلوبهن(..)، ولا سيما البيت الثاني، كانت عشرات الحاجَّات السافرات منهن والمحجبات يتمثلن بهذا البيت، بل وينشدنه إنشادا ويغنين به غناء ويرقصن عليه رقصًا(١٨)".

ولعل ما رواه الأصفهاني في سيرة الشاعر العرجي ما يؤكد هذا القول، إذ يرد جواب شبيه لجواب عائشة بنت طلحة ولكن بالبيتين معا، عن امرأة أخرى وصفت بالجمال قيل أنها أرفثت في الحج بكلام، أي أنها تفوهت بفحش، فتقدم منها عبدالله بن عمر العمري فقال لها: "يا أمة الله ألستِ حاجة! أما تخافين الله! فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسناً، ثم قالت: تأمل يا عم فإنني ممن عنا العرجي بقوله،"، وتلت البيتين السالفتين، فقال لها الرجل: "أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار". وتضيف الرواية أن هذا الخبر بلغ بعد ذلك سعيد بن المسيب، أحد فقهاء وعلماء العصر آنئذ، فرأى أن الأمر كله من "ظرف عُبَّاد أهل الحجاز"، وأضاف مستنكرا إنه لو كان الرجل "من بعض بُغَضاء العراق"، أي غُلاتهم، لقال لها: "أغربي قبحك الله(١٩)". هذه الرواية تفيد شيئًا مهمًا وهو أن الغلاة على قلتهم وجدوا منذئذ، وشاعت آراؤهم المستنكرة، لكن أعلاما مشهورين كسعيد بن المسيب رأى الأمر كله ظرفا يأتيه عباد الحجاز، وفي هذا اللقاء الحميم بين العبادة والظرف كما نقل عن ابن المسيب ما يشرح المقصود من عرضنا لصور التاريخ الاجتماعي ليجد المسلم في الظُرف فسحة بريئة لإراحة النفس ومنعها من التكدر والتجهم والصدأ. وهو معنى يرد في قول مأثور نصه: "أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد". ولو صح هذا القول حديثًا عن رسول الله (ﷺ) لعلت قيمة القول، ويبقى لكل إنسان في إراحة النفس مذهب وسبيل، طالما جانب المحرم الصريح.

وقد لا يجد البعض فيما يتعلق بتشابه الإجابات عند عائشة والمرأة الأخرى دليلاً على شيوع هذا اللون من التظرف، وقد يشككون تاليا بصحة ما نقل عن عائشة والمرأة الأخرى، لاسيما وأن تشابه إجابات أخرى على قلتها نجدها هنا وهناك تنسب لغير شخص واحد، ومع أن في إثبات النسبة للقائل فائدة تعين على تفهم الصورة الاجتماعية أكثر، إلا أن المهم في النص، حتى مع تعذر تحديد قائله هو الدلالة الاجتماعية التي يتضمنها، فهو يبقى نصًا اجتماعيًا قائمًا تداولته الألسن حتى ضمن له التدوين وجودًا واقعيًا لا سبيل إلى دحضة، ومن يزعم أن الرواة صاغوا حوادث من هذا القبيل اعتمادا على مشاهد الشعر الواردة في الأبيات، إنما يطلق افتراضًا غير مؤيد بالدليل، ولا يقوى على إلغاء واقعية النص. ونستطيع القول باطمئنان إن شهرة جوابٍ ما عُرف أصلاً عن رجل أو امرأة، هو الذي يغري بشيوع استخدامه، وهكذا تتوزع نسبته بين أشخاص كثر بعدئذ، يكون كل منهم قد قاله إما أصالة أو تقليدًا أو حتى كذبًا. ويبقى النص نصًا اجتماعيًا واقعيًا له دلالته السلوكية. ولأن بيتي العرجي السالفين قد شُهرا وافتتنت النساء بهما، فإنه يمكن تصور عائشة وغيرها يشرحن بالبيتين السالفين موقفًا يحدث لهن في موسم الحج، حيث كان الموسم مناسبة دينية واجتماعية على السواء كما تصوره قصيدة العرجي، ومأثورات أخرى كثيرة.

ونخلص إلى أن سفور عائشة بنت طلحة يبقى في إطار البداهة الاجتماعية الممتدة من زمن ما قبل الإسلام يومئذ، لاسيما وأن النقاشات الشرعية حول النقاب ووجه المرأة إنما انتعشت في القرن الثالث الهجري، وهي التي رصدها الجاحظ (ت. ٢٥٥هـ) في "رسالة القيان"، ثم إن الرأي الفقهي الغالب والمتواتر إلى اليوم هو أن وجه المرأة ليس بعورة، وهو ما أكد عليه شيخ السلفية المعاصر الألباني (رحمه الله) في كتابه الشهير " جلباب المرأة المسلمة"، وغيره من الفقهاء، ونستشهد به تحديدا لقربه من القائلين بعورة الوجه ومقارعته لهم. والمفيد أن ندرك أننا أمام سلوك اجتماعي تلقائي وفي بيئة سكنية بسيطة ومفتوحة، يعرف الناس فيها بعضهم بعضا، وفيها ألوان متعايشة من السلوك الاجتماعي وتنوع بدهي لأشكال الظهور مقبول،

وأن أخبار الحجاب والسفور في القرن الأول الهجري إنما كانت تتواتر ضمن حال الثقافة الاجتماعية لا الشرع.

٣-عائشة والفقيه الشعبي

وهناك رواية أخرى مسرحها الكوفة في العراق تصور مصعب بن الزبير زوج عائشة وأمير العراق في هذه الفترة الممتدة من سنة ٦٦ إلى ٧٢هـ، متباهياً بجمال زوجه عائشة ويرغب في أن يعرف الناس مقدار حسنها وجمالها. وهي الرواية التي تصور الأمير مصعب بن الزبير مصطحبا لفقيه العراق عامر بن شراحيل الشعبي (ت. ١٠٣أو ١٠٤هـ) إلى منزله ليرى عائشة في كامل زينتها وليحدث بما رأى.

وكي يتمكن القارئ من متابعة حديثنا حول لقاء الشعبي بعائشة نورد الرواية بتمامها كما وردت في أقدم مصدر لدينا هو كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري المتوفى (٢٧٦هـ)، وهو يسبق كتاب الأغاني بزهاء القرن من الزمان.

عن الشّعبيّ قال: دخلت المسجد باكرًا، وإذا بمصعب بن الزّبير والناس حوله، فلما أردت الانصراف قال لي: أُدْنُ. فدنوت منه حتى وضعت يدي على مرفقته، فقال: إذا أنا قمت فاتبعني، وجلس قليلاً، ثم نهض فتوجّه نحو دار موسى بن طلحة فتبّعته، فلما أمعن في الدار التفت إليّ وقال: أدخل .فدخلت معه ومضى نحو حجرته وتبعته، فالتفت إليّ فقال: أدخل، فدخلت معه فإذا حَجَلَةٌ[٢٠]، فطرحت لي وسادةٌ فجلست عليها، ورُفِعَ سَجْفُ القبّة، فإذا أجمل وجهٍ رأيته قطّ، فقال: يا شعبيّ، هل تعرف هذه؟ قلت: نعم، هذه سيّدة نساء العالمين عائشة بنت طلحة، فقال: هذه ليلى، ثم تمثّل:

وما زلت من ليلى لدنْ طرَّ شاربي
إلى اليوم أخفي إحْنَةً وأداجن
وأحمل في ليلى لقومٍ ضغينةً
وتُحْمَلُ في ليلى علي الضغائن

ثم قال: إذا شئت يا شعبيّ فقم. فخرجت، فلما كان العشيّ رحت إلى المسجد فإذا مصعبٌ بمكانه، فقال لي: أدن. فدنوت، فقال لي: هل رأيت مثل ذلك الإنسان قطّ؟ قلت: لا، قال: أتدري لم أدخلناك؟ قلت: لا، قال: لتحدّث بما رأيت. ثم التفت إلى "عبد الله بن" أبي فروة فقال: اِعطه عشرة آلاف درهم وثلاثين ثوباً. فما انصرف يومئذ أحدٌ بمثل ما انصرفت به: بعشرة آلاف درهم، وبمثل كارة القصّار[٢١]، ونظري إلى عائشة"[٢٢]

ثم ظهرت الرواية بعد ابن قتيبة عند البلاذري المتوفى سنة (٢٧٩) للهجرة، في "أنساب الأشراف" والبلاذري مؤرخ حسن الصيت ينقل عن ثقات ويتثبت مما يروي، ويعد معاصرا لابن قتيبة. عند البلاذري يتغير مسرح الرواية فلا يكون الشعبي بالمسجد بل يرد أنه ركب مع مصعب حتى إذا ترجل مصعب عن خيله أمر الشعبي بالنزول من خيله وأخذه بيده وأدخله الدار فشاهد عائشة بزينتها، وعندما هم بالانصراف تدخل عائشة وتقول: "والله لا ينصرف إلا بجائزة"، ثم يتغير أيضا مشهد اللقاء التالي فلا يكون في المسجد، بل يدخل الشعبي على الأمير مصعب وعنده ناس فيستدنيه إليه ويسأله رأيه في عائشة همساً ثم يعود الشعبي إلى مكانه[٢٣]. ورواية البلاذري هذه تبقي جوهر المشاهدة قائمًا فلا تشكك به ولا تستنكف منه بتعليق أو ملاحظة أو سوى ذلك. وبحكم معاصرة ابن قتيبة للبلاذري، تبدو رواية البلاذري، وقد قلت فيها الزخرفة والمبالغة، أميل إلى أن تكون هي الأقدم تدوينا. والحسم في صحة الروايات مؤجل إلى ما بعد الاستعراض لكل الروايات.

ثم تظهر الرواية للمرة الثالثة عند ابن عبد ربه المتوفى (٣٢٨هـ) في العقد الفريد وهو مصدر أندلسي ومؤلفه عاش ومات في الأندلس، ولا تختلف رواية ابن عبد ربه عن رواية ابن قتيبة. وتظهر الرواية ثانية أن عائشة هي من تقترح جائزة للشعبي وقد رآها: "أما إذا جلوتني عليه فأحسن إليه"[٢٤]، وهو قول قد يفهم منه أنه ما كان أحد يراها، لكن الشعبي، كما تفيد الرواية، عرفها فورًا، دون أن ندري مكان التعرف عليها أفي الحجاز كان ذلك أم في العراق؟ فقد عاش الشعبي في المدينة زمنا ثم عاش في الكوفة، وهو قريب من عمرها، ولعله يعرفها من المدينة والكوفة معا، لكنها هنا تنكشف له في بيتها بكامل زينتها، وهو مقام آخر استحق الشعبي عليه جائزة فوق رؤيته لها، كما تصور الرواية.

وفي المرة الرابعة تظهر الرواية عند الزجاجي المتوفى (٣٣٦هـ) في كتابه "أخبار أبي القاسم الزجاجي"، وتروى الرواية عن (مجالد عن الشعبي) نفسه، لكن مسرح الرواية وطبيعتها يختلفان فلا يكون في المسجد، ولا يكون ركب مع مصعب، بل دخل عليه في بيته، فطلب منه أن يرفع السُتُر، ففعل، فشاهد عائشة، فسأله مصعب عنها، فمدح الشعبي جمالها، فزفر مصعب واشتكى حاله معها وقال: "أما إني ما تهنأت بالعيش معها ولا انتفعت به منى، لأني رجل مذكر أريد أن يكون الأمر لي، وهي مذكرة تريد أن يكون الأمر لها. فلا أنا أتابعها، ولا هي تتابعني"[٢٥]. وتقف الرواية هنا وليس لها لواحق. وهذه الرواية الخالية من التصوير المسرحي والعطاء والمباهاة، أقرب إلى الواقع، لأن مصعب بعدها يظهر شكواه منها ومن اعتدادها بنفسها فلا يتفقان ولا يهنأ كل بصاحبه. وكأن الزجاجي هنا يرى قيمة الرواية في تصويرها حال من تزوج جميلة ثم لا يهنأ بها لشراسة خلقها، وقد قيل عن نساء بني تيم ذلك وعائشة منهن.

ثم وردت الرواية بعد ذلك للمرة الخامسة عند الأصفهاني المتوفى (٣٥٦هـ) في الأغاني، وهي نفسها الرواية الواردة عند ابن قتيبة بلا زيادة ولا نقصان. ويحسن هنا أن ننوه ثانية إلى أن الأصفهاني متابع لمن قبله كي لا يتم النكير عليه وعلى الرواية من الغلاة، وهو معاصر للزجاجي الذي انفرد بتصوير آخر للرواية يختلف عن الشائع المتواتر. ثم تظهر الرواية بعد ذلك عند المعافى بن زكريا المتوفى (٣٩٠هـ) في كتابه "الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي"، وهو من المشتهرين بالثقة في الرواية أيضًا، ولا تختلف الرواية في شكلها الخارجي عن رواية ابن قتيبة وأن البداية كانت في المسجد. لكن هذه الرواية تُظهر زيادات ومنها سبب اصطحاب مصعب بن الزبير للشعبي إلى بيته وهو أنها اشتهت تبادل الحديث مع الشعبي، وبكلمات الرواية، يقول مصعب للشعبي: "أنها اشتهت عليّ حديثك، فحادثْها، وخرج وتركنا، قال فجعلت أنشدها وتنشدني وأحادثها وتحادثني حتى أنشدتها قول قيس بن ذريح:

ألا يا غراب البين قد طرت بالذي
أحاذر من لبنى فهل أنت واقع
أتبكي على لبنى وأنت قتلتها
وقد هلكت لبنى فما أنت صانع

قال: فلقد رأيتها وفي يدها غراب تنتف ريشه وتضربه بقضيبٍ وتقول له: يا مشؤوم[٢٦]."

هذه الرواية تضيف صورة جديدة وهي ترك الأمير مصعب زوجه عائشة والشعبي يتحادثان منفردين. وقد أخذ الحديث يكون تناشدا للشعر، والغزلي منه على وجه الخصوص كما مر. وزادت الرواية أن غرابا كان بيدها تنتف ريشه وتخاطبه يامشؤوم. فالغراب عند العرب رمز للفراق والهجران. ثم تظهر الرواية بعد أقل من قرنين عند ابن عساكر المتوفى (٥٧١هـ)، في كتابه "تاريخ دمشق"، وفي هذا المصدر يظهر جديد لافت، فبعد أن أدخل مصعب الشعبي قصر الإمارة وأظهر له عائشة، سأله إن كان يعرفها فأجاب الشعبي بالنفي، وهي كذلك تساءلت عن هذا الذي أدخل عليها، فلما سمعت اسمه طلبت من مصعب أن يمنحه المال وقد كان عندها، فوهبه عشرة آلاف درهم[٢٧]. ثم تكرر في هذه الرواية أيضا أنها اشتهت حديث الشعبي فحادثها كما ورد سابقًا في رواية المعافى بن زكريا.

ثم نجد الرواية مرة أخرى عند البُري (ت. ٦٧٩هـ) في كتابه "الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة". وفي هذا المصدر لا تختلف الرواية عن الرواية الأصل التي أوردها ابن قتيبة، إلا بزيادة وصف ما كان عليها من جواهر وحلي جميلة وأنها كانت أجمل مما عليها من زينة.[٢٨] ولا يورد النويري (ت. ٧٣٣هـ)، هذه الحكاية في "نهاية الأرب في فنون الأدب"، رغم أنه نقل كل أخبار عائشة عن الأصفهاني. وآخر ظهور للرواية نجده عند ابن كثير (ت. ٧٧٤هـ)، وترد مختصرة فيها تأكيد حصول مشاهدة الشعبي لعائشة وإطرائه لجمالها وحسنها، وتظهر هي لا تعرف من هذا الذي أدخل عليها وتقترح له المكافأة.

كان ذلك استعراضًا تاريخيًا للرواية في أكثر من مصدر، وقد دخل عليها بعض التغير في شكلها الخارجي في هذا المصدر أو ذاك، لكن جوهر الرواية وهو دخول الشعبي إلى بيت مصعب بن الزبير ومشاهدته زوجته عائشة بكامل زينتها ظل ثابتا في كل الروايات التي تروى كلها عن الشعبي بسند قصير أو طويل، أي أن الفقيه الشعبي هو مصدر هذه الرواية، وهو ممدوح في كتب السير، وأنه ثقة وأحد العلماء الحفاظ. ولعله روى شيئًا عن مقابلته لعائشة، لكن لا ضمان لبقاء ما روي على حاله. واللافت جدا تواتر هذه الرواية خلال القرون دون نقد أو تجريح أو تكذيب لجوهر الرواية، وهو ما قد يغري بتصديقها والأخذ بها وعرض صورة من صور الحياة الاجتماعية تتنافر كلية مع تصوراتنا لآداب اليوم. وقد تتبعنا الرواية في المصادر المختلفة علّنا نقف على الرواية الأصدق والأقرب للواقع، أو ما يساعدنا على نفي حصول تلك المقابلة بين الشعبي وعائشة على النحو الذي أوردته كل الروايات هنا، وكلها تنسب للشعبي في نهاية الأمر.

ويمكن تلخيص اتجاه الروايات وما تريد إبرازه بثلاث وجهات، هي المباهاة والمحادثة والصلح. الاتجاه الأول: **المباهاة**، ويعني أن مصعب أدخل الشعبي لينظر إلى زوجته عائشة كي يحدث بجمالها مباهاة لغيره. والثاني **المحادثة**: ويعني أنه أدخله إلى بيته كي يحادث عائشة لأنها رغبت في محادثته. والثالث **الصلح**: ويعني أن الشعبي دخل على الأمير مصعب فرأى عائشة وأثنى على جمالها فاشتكى منها مصعب، ولعلها زيارة للصلح بينهما رغم عدم ورود ذكر صريح لهذا الأمر.

فما الذي يمكن قبوله تاريخيًا أولاً، قبل أن نصف الرواية بأنها "نص اجتماعي"، له مدخله في الفهم والتفسير؟ هل نقبل الرواية بتفاصيلها المكررة والمتواترة عبر القرون دون جرح لها أو نقد، ثم نستخرج الصور الاجتماعية البارزة منها، وهي تحدث عن نفسها بنفسها ولا تحتاج إلى إبراز، لاسيما وأن شخوص الرواية فقيه مشهور وأمير مشهور وزوجة أمير مشهورة أيضا؟ أم نُحَكِّمْ أذواق عصرنا ونجعلها معيارًا نسقطه على أذواق صدر الإسلام وثقافته؟ وذوقنا المعاصر يستغرب مثل هذه الرواية وينكرها، فهل نكون منصفين وطلاب معرفة تاريخية إن نحن حكّمنا أذواقنا المعاصرة لفرز المعقول واللامعقول من المروي؟ لكن فحص الروايات وتمحيصها واجب علمي، وهو واجب لا يتم علميا إلا في إطار البيئة التاريخية التي أنتجت النص وتولت رعايته في القرون التالية. أي

أن البيئة التاريخية، وليس الذوق المعاصر هي مناط فرز الصدق من الكذب في هذه الرواية وغيرها.

ومن خلال التجربة مع النصوص وبيئاتها التاريخية، يمكن القول إن هناك جوهراً للرواية لابدَّ من الإمساك به والإقرار بوقوعه، وهو أن الشعبي فقيه العراق دخل مسكن الأمير مصعب بن الزبير، ورأى عائشة بنت طلحة، وحادثته وحادثها. وليس في هذا ما يثير الرِّيب ويُلْفِتْ الأنظار، وفي هذا البحث من الشواهد على ذلك ما يكفي ويزيد. ونحن نرجح أن الشعبي كان يدخل على الأمير مراراً فهو فقيه العراق ومفتيها، وحصول علاقة وثيقة بينه وبين الأمير منتظر وضروري. لكن ما الذي عسانا نرجحه من سبب لزيارة يرى فيه الشعبي عائشة بنت طلحة في بيتها وبزينتها؟ هل هي المباهاة أم المحادثة أم الصلح؟

وفيما يتعلق بالاحتمال الأول، المباهاة، فقد وردت روايات عن غرور مصعب بنفسه وجماله، ونسب إليه قوله إنه جمع بين أجمل امرأتين في عصره، وهما سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة. كما وردت روايات عن أنه كان يغار من أهل الجمال. لكن مصعب في هذه الفترة، وقد كان أمير العراق كله ومعظم المشرق الإسلامي، نائبًا لأخيه خليفة الحجاز عبد الله بن الزبير، عرف بالشجاعة ومقارعة الأعداء في ميادين المعارك. وكان هو من قتل المختار الثقفي، وأوقف ثورته وقضى على خصومه، وأدار أكثر من معركة ناجحة حتى صفا له العراق، ولم يهزم إلا أمام عبد الملك بن مروان عام ٧٢هـ، وشهد له خصومه بالشجاعة في كل المعارك وفي هذه الأخيرة أيضًا.

أمير بهذه المواصفات، يحكم العراق ومعظم المشرق، محاط بالخصوم والأعداء، وعرف بالكرم والشجاعة، لا يتوقع منه أن يظهر، كما تصوره الروايات، مشغولاً بتعريف الناس بجمال زوجته عائشة، فالمعرفة قائمة بذاتها بحكم كونه الأمير وبحكم شهرة عائشة أيضًا وجمالها، وبحكم بساطة الحياة يومئذ وسهولة التعارف، ولا يحتاج الأمير والحال هذه، حتى مع الإقرار برغبته في إشهار جمال زوجته، إلى الشعبي كي يحدث بجمالها في الناس، فشهرة جمالها قائمة وتتولى النساء غالبًا إشهار ما استتر من جمال، ناهيك عن جمال عائشة وقد كانت هي نفسها متباهية بجمالها ولا تستر وجهها.

أما **المحادثة** التي أعطيت سببا للزيارة، ففي متن الرواية وطريقة عرضها ما يقدح فيها، لاسيما تصوير عائشة ممسكة الغراب وتنتف ريشه، ويكون الحديث عن شعر الغزل. ومع أن التحادث في هذه الأمور شائع، وسنجد عائشة بعد ذلك تلقى الشعراء في الطائف وتحادثهم، إلا أن مثل هذا السبب لا يستحق أن يذكر، إلا أن يكون عذرا ليدخل عليها ويراها ويحدث بجمالها، وهو ما يعني ترجيح سبب المباهاة وقد عرضنا لتهافته.

والأقرب للواقع هو السبب الثالث، الصلح، لكنه لا يرد في رواية الزجاجي التي نراها أقرب للواقع، ومع ذلك نرجح أن الشعبي دخل دار مصعب في وساطة وصلح بين مصعب وزوجته، فهو فقيه العراق ومن رجال الدولة فيها، وقد عُرفت عائشة أنها تطيل الخصام مع أزواجها، وأن دخول الفقيه عليها لينصحها بأوجه الشرع وحقوق الزوج مما يقبل عقلا في تلك البيئة التاريخية، وينتفع الأمير بزيارة الفقيه وتحصل المودة بينه وبينها وتهنأ به ويهنأ بها. ونكرر الرواية هنا ثانية بتمامها وهي رواية الزجاجي المتوفى (٣٣٦هـ). عن الشعبي قال: "دخلت على مصعب بن الزبير فقال لي: يا شعبي ارفع هذا الستر فرفعته فإذا عائشة بنت طلحة فقال: كيف ترى؟ فقلت: ما كنت أظنّ أن في أهل الأرض من يشبه هذه. فقال: أما إني ما تهنأت بالعيش معها ولا انتفعت به مني، لأني رجل مذكر أريد أن يكون الأمر لي، وهي مذكرة تريد أن يكون الأمر لها. فلا أنا أتابعها، ولا هي تتابعني".

في هذه الرواية لا يذكر الصلح بل تبرز الشكوى، لكن رواية أخرى تعزز ما ذهبنا إليه وهو أن الشعبي إنما دخل للصلح فرأى عائشة وحادثها. وتتعلق الرواية بمخاصمتها لزوجها مصعب، وقد اشتهرت بالعناد وطول الخصام، وتذكر الرواية أن الأمير مصعب أرسل إليها الشاعر ابن قيس الرقيات ليقنعها بترك الخصام، وكان الشاعر ابن الرقيات من المقربين من مصعب وقاتل معه في أكثر من وقعة ومدحه بشعر فائق شاع وذاع. وكانت عائشة قد أقسمت وقالت كما يقول الرجال عند الرغبة في فراق زوجاتهم إنه (أي زوجها مصعب) "عليَّ كظهر أمي"، ثم اتخذت لنفسها حجرة وصارمته، وقد جهد أن يصالحها فما لانت، فبعث الشاعر ابن قيس الرقيات الذي يبدو أنه أقنعها بكف الخصام، ثم تساءلت عن يمينها الذي يحرم مصعبا عليها "عليَّ كظهر أمي" فقال ابن قيس الرقيات: "ها هنا الشعبي فقيه أهل العراق فاستفتيه. فدخل عليها، فأخبرته، فقال: ليس هذا بشيء. فقالت: أتحلني وتخرج خائبًا! فأمرت له بأربعة آلاف درهم".

هذه الرواية متآزرة مع رواية الزجاجي، تقدم وصفا لبيئة الرواية الأقرب للواقع، قبل أن تدخل عليها الزيادات، ولا يعيب الرواية أن تكون الأرجح ومثبتة في مصدر لاحق عن أقدم ذكر لها مزخرف وبعيد عما نرجح أنه الأصل، فقدم المصدر (ابن قتيبة ت. ٢٦٧هـ) ليس حجة على صدق الرواية دائما. فلعل الزجاجي، وقد اطلع على الروايات بهذا الشأن أنتقى ما رآه الأصوب فأثبته في كتابه المشتمل على جُمَلٍ من الأخبار المتنوعة والطريفة. وتبقى روايته كما نرى الأكثر قربًا من أحوال مصعب وعائشة والأكثر قربا للبيئة التاريخية يومئذ وثقافتها.

والآن، وبعد أن رجحنا رواية الزجاجي، كيف نشرح ما طرأ على الرواية من زيادات؟ والزيادات متعلقة برغبة مصعب في المباهاة بزوجته، ورغبته في أن يشيع خبر جمالها وزينتها، ثم بالمحادثة حول الشعر الغزلي والمشاركين فيه، وتصويرها تمسك بالغراب وتنتف شعره، ثم تصويرها كريمة مع الشعبي فتقترح له مكافأة فوق مشاهدته لها بكامل زينتها. ثم كيف تشيع الرواية وتتزخرف مرتبطة بالشعبي الفقيه وليس بابن قيس الرقيات الذي قال في جمالها شعرا شاع وذاع؟ وأرى أن الإجابة على تلك الأسئلة تكمن في طبيعة الخبر الأصل، "حديث الفقيه الشعبي مع الحسناء عائشة"، مع ظُرْفٍ مشهور عن الإمام الشعبي، وفي المصير الذي آل إليه مصعب بن الزبير وفي عودة عائشة إلى الحجاز لتعيش بين المدينة ومكة والطائف حياة مترفة بحضور اجتماعي بارز، كل ذلك كما نرى هو المسؤول عن الزيادات.

فالشفاه وقد تلقت الرواية الأصل عن دخول الشعبي على عائشة، مع شهرة عائشة بالجمال وافتخار مصعب بأنه جمع بين أجمل امرأتين، ثم مقتله بعد ذلك، هو الذي جعل الرواية تكبر وتتطور ويضيف إليها الخيال كعادته زخارف وألوان حين يتعلق الأمر بلقاءات المرأة مع الرجل، لاسيما وقد قتل الأمير مصعب وأمن العقابَ المتزيدون في الرواية، فأضافوا إلى أصل الرواية ما راق لأخيلتهم أن يتصوروه وللسامع أن يسمعه، فأضيف مسرح الرواية في المسجد قبل وبعد، وأضيفت الستور والزينات والشعر والمحادثة والغراب والمكافأة المجزية وسواها، فصارت الحكاية لونا من القص الشعبي يرضي الفضول والخيال معًا.

ومع أن الرواية بكل تفاصيلها المزخرفة لا تجرح أدبًا ولا تخرج عن شرع، إذ ليس فيها أكثر من المشاهدة في بيئة زمان عربي قديم، لم يكن لباس المرأة وزينتها فيه يومئذ كاشفين ومثيرين للشهوة، بل تجمُّلٌ يخضع لمعنى الحشمة وصون الجسد. أما حديث المرأة مع الرجل في البيئة العامة يومئذ فشائع وتعكس براءة السلوك وتلقائيته مثلما تعكس الثقة بالعفة والاحتشام. والرواية لا تستوقف الباحث بسبب تنوع التفاصيل الشكلية، بل لندرة هذه المشاهد الاجتماعية في التراث، فلم نقرأ رواية مشابهة قط متعلقة بمقابلات بين نساء ورجال في أسرّة النوم وبزينة كاملة. لقد كانت اللقاءات تحدث في المجال العام وبحشمة ظاهرة وعفة أكيدة، وعليه نكرر ما رجحناه وهو أن الشعبي دخل للصلح ولا شيء غير ذلك، فرأى عائشة وتحادثا.

هل نقف هنا مع هذه الرواية أم نظيف أنها "نص اجتماعي" له حضوره بكل تفاصيله، وأنه يطلعنا على ملمح اجتماعي نرى ضرورة إبرازه، وهذا الملمح هو الخيال الشعبي الذي تولى صياغة هذه الرواية، وتواترتها العقول بالقبول حتى القرن الثامن، أي أن العقل الاجتماعي العام المنعكس في تلقي هذه الرواية دون نقد أو إنكار كان يعكس ثقافة مجتمعية خالية من الغلو مقرة بأحوال اجتماعية متنوعة وتلقائية لا ترى فيها ريبة في السلوك ولا تهاونا في العرض، بل ظُرْف في الغالب يشيع ويتواتر حتى يجد طريقه إلى التدوين بعدئذ.

٤-وساطاتُ الرجال لدى النساءِ

وضمن الصورة الاجتماعية للعرب في صدر الإسلام نجد الرجال يوسطون رَجُلاً آخر لخطبة النساء، كما يستعينون بالرجال لحل خلافات عائلية، وهذه الأخيرة ما تزال ممتدة إلى اليوم لاسيما في الأرياف حيث الجميع عائلة واحدة كبيرة تعرف بعضها بعضا، وقد صارت من الخصوصيات كما ندعوها اليوم، بيد أن بساطة المجتمعات يومئذ وتعارف المجتمع مع بعضه لم يجعل لمثل هذه الخصوصية حضورا، فكأنها واردة فقط في مجتمع الغرباء، مجتمع المدن الكبيرة الجامعة لأشتات القوم في مكان واحد. وتُظْهر أخبار عائشة كلا الصورتين، خِطبة الرَّجُل للرَّجُل وتوسط الرجل بين زوجين لحل خلاف بينهما.

ففي قصة زواجها من زوجها الثالث عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، يرد أنه أتى عائشة خاطبا إياها لبشر بن مروان بن الحكم، أخ الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وكان قد صار أميرًا على الكوفة خلفا لزوجها المقتول مصعب، فقالت له: "أما وجد (بشر) رسولاً إلى ابنة عمك غيرك؟، فأين بك عن نفسك؟ قال: أ وتفعلين؟ قالت: نعم، فتزوجها"[٢٩]، وقد وردت هذه الرواية عند البلاذري المتوفى (٢٧٩ هـ)، أما الأصفهاني فيورد روايتين، إحداهما متطابقة مع رواية البلاذري، والأخرى تقول إن عمر بن عبيد الله التيمي، نزل الكوفة فعلم أن بشر بن مروان خطبها فأرسل إليها جارية لتخطبها له فوافقت عليه[٣٠]. وعند ابن الجوزي في المنتظم أن زوجها الثالث هذا عمر بن عبيد الله حمل إليها ألف ألف درهم، خمسمائة ألف مهرًا وخمسمائة ألف هدية، وقال لمولاتها: لك على ألف دينار إن دخلت بها الليلة"[٣١]. والمال المذكور هنا ذكر مثله قبلا عند زواجها من مصعب بن الزبير، وهي أرقام لا يمكن التثبت منها، لكنها تحمل دلالة الغنى والترف عند علية القوم كما تشير إلى تقدير الزوج لقيمة عائشة كامرأة، وأن دفع مليون درهم مهرا لها ليس إلا تعبيرا عن القيمة الرمزية العالية لعائشة بنت طلحة. كما تفيد الرواية فوق ذلك أن المرأة كانت يومئذ جريئة وتخطب لنفسها، وما دامت أميل إلى عمر بن عبيد الله من بشر بن مروان أخ الخليفة، فقد كاشفته برغبتها في الزواج منه ووجدت لديه القبول فتزوجا.

أما حالات التوسط من رجال لحل خلافات عائلية بين زوجين، فكثيرة أيضا، ثم إن ما يرد عن عائشة بنت طلحة بهذا

الخصوص متنوع، فشهرتها بمصارمة أزواجها وامتناعها عليهم مددا طويلة قد انعكست وصفا شيقا في المصادر فقيل أنها شرسة الخلق، وقيل أنها أشكس خلق الله(٣٢). وقد مر بنا أن أبا هريرة كان وسيط صلح في المدينة أيام كانت زوجة لابن خالها عبيد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر.

أما حالها مع مصعب بن الزبير، فيظهر أن الخصومات تكررت فتكرر ذكر الوسطاء الموعودين بالجوائز المالية الكبيرة إن هم قدروا على إقناعها بترك الهجر والخصام. وفي هذا السياق ترد أسماء الوسطاء وهم أشعب ومحمد ابن أبي عتيق، والشاعر ابن قيس الرقيات، والشعبي كما مر معنا وأم حبيبة وأم منظور. ولكل من هؤلاء الوسطاء قصة غريبة في كيفية إقناع عائشة بترك الهجر والخصام كي يفوز بالمبلغ الموعود، منهم من أقنعها بتمثيل الود مع زوجها حتى يأخذ الجائزة ثم تعود لما كانت عليه من هجر وخصام، ومنهم من هددها بدفنها حية كما طلب الأمير فارتاعت وتصالحت مع زوجها، ومنهم من أحلها من يمين كما فعل الشعبي ونال جائزته منها. وقد تكون التفاصيل المتصلة بالروايات من خيال القصاص والوعي الشعبي عامة لكن واقع المخاصمة وتوسط الرجال عند النساء للمصالحة يبقى واقعا تاريخا لا سبيل للقدح فيه، وأن فكرة الرجل الغريب أو الأجنبي، كما تشيع اليوم، لم تكن يومئذ من مفردات تلك البيئة البريئة والمنفتحة حيث الناس تعرف بعضها ولا يعرفون معنى للغريب والأجنبي. وإلى جانب الرجال رويت أيضًا وساطة لامرأة تدعى أم حبيبة امرأة أبي فروة، وفي هذه الرواية يظهر أحد أسباب المخاصمة، وهو معاشرة مصعب للجواري(٣٣)، وهؤلاء كن ضرائر قاسيات وإن لم يكنَّ حرائر ولا أزواجا، لكنهن نساء ولديهن من طرائق الإثارة وإشباع الرغبات ما لا يتوفر للزوجات الحرائر، وبحكم توفر الجواري يومئذ من أعراق شتى وتعلمهن فنون الإغراء كن أكثر حظًا عند الرجال من الحرائر، ولعل عائشة بنت طلحة المعتدة بنفسها كانت تستشعر وخزا في كبريائها وتعريضا بأنوثتها إن انصرف عنها زوجها الأمير مصعب إلى جوار أو إلى زوجه سكينة بنت الحسين التي لا تقل عن عائشة جمالا وحضورا. ومع ذلك فلم يذكر هذا السبب إلا مرة واحدة، بينما ذكر سبب الندية والاعتداد بالذات (بل بالذكورية) على لسان زوجها مصعب حين دخل الشعبي عليه وأثنى على جمال عائشة كما مر، ثم اشتكى مصعب منها لأنها لا تلين كأنثى وهو الرجل يريد أن يكون الأمر له.

وفي الخصومة التي توسطت فيها أم منظور يبرز ثانية مقدار الغنى والترف، فمصعب أمير العراق ومعظم المشرق وإليه تجبى الأموال فتكثر وتتكدس ويتم الإنفاق منها بلا حسيب ولا رقيب. يرد في الرواية أن مصعب حاول استرضائها بأربعمائة ألف درهم، فما عنى ذلك لعائشة شيئا، وقد حاورتها أم منظور بشأن الخصام وعاتبتها فسكتت عائشة وظنت أم منظور أنها قبلت الصلح فقالت لمصعب إنها رضيت وأن رضاها في سكوتها، فأقبل يريد الدخول عليها فأغلقت الباب في وجهه فغضب ودفع الباب إليها فتضاربا وأوجعها وأوجعته ففصلت بينهما أم منظور وأخذت في إقناعها بالصلح حتى رضيت(٣٤)، وكدليل على أنفتها وازدرائها للمال أمام كبريائها، جعلت ثمن الصلح الأربعمائة ألف درهم من نصيب أم منظور جزاء صنيعها، فما كان من مصعب إلا أن جعل لها أربعمائة ألف أخرى حين تأتي الأموال. ومرة ثانية لا يمكن الوثوق بالأرقام الواردة لكنها تفيد الغنى والعبث بأموال بيت المال.

٥-عائشة ووالي مكة

ولأن عائشة من النساء المؤمنات القانتات، فهي تحج وتصلي كغيرها من نساء المؤمنين، ولعلها حجت أكثر من مرة، وقد حجت في سنة من السنين غير محددة، لكن حجتها في تلك السنة تقع في خلافة عبد الملك بن مروان، وفي ولاية الحارث بن خالد المخزومي لمكة، والمتوفى نحو (٨٠هـ)، وبعد أن مات عنها زوجها الثالث عمر بن عبد الله التيمي، وأبت أن تتزوج بعده. فقد حجت عائشة في تلك السنة، وروت الأخبار قصتها مع والي مكة الحارث بن خالد المخزومي في موسم الحج، فقد أمر بتأخير وقت الصلاة حتى تتم عائشة طوافها. وكان الحارث المخزومي الموصوف بأنه "ذا قدر وخطر ومنظر في قريش(٣٥)"، كما تقول الرواية، "يتعشقها"، أي يتعشق عائشة ويهواها. وقد قال فيها أشعارًا كثيرة، واشتهرت قصة عشقه لها في الشباب وقد خطبها للزواج لكنها رفضت متعللة بأن بها عيب ولا تريده أن يطلع عليه(٣٦)، ومع رفضها الزواج منه في شبابه، فقد ظل هواه لها حيا رغم السنين والكِبَر للاثنين.

وكان الخليفة عبد الملك بن مروان حين قصده الحارث في دَيْنٍ خيره بين أمور ثلاثة، أن يقضي دينه، أو يعطيه مائة ألف درهم، أو يوليه مكة سنة، فاختار الثالثة وولي مكة. وقد روى ابن حمدون في "التذكرة" ما يلي: "وكان الحارث بن خالد المخزومي مع منصبه وشرفه وفضله، شديد الغزل، خالعًا فيه العذار، ولاه عبد الملك بن مروان مكة، فأذن له المؤذن وخرج إلى الصلاة، فأرسلت إليه عائشة بنت طلحة أن بقي من طوافي شيء لم أتمه، فأمر المؤذنين فكفوا عن الإقامة حتى فرغت من طوافها، والناس يصيحون به ويضجون، فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان، فعزله، وكتب إليه يؤنبه فيما فعل، فقال: ما أهون والله غضبه عليَّ إذا رضيت عائشة، والله لو لم تفرغ من طوافها إلى الليل لأخرت الصلاة إلى الليل"(٣٧).

وعند الأصفهاني يقول عن الحارث المخزومي: "فحج بالناس وحجت عائشة بنت طلحة فأرسلت إليه: أخر الصلاة حتى أفرغ من طوافي فأمر المؤذنين فأخروا الصلاة حتى فرغت من طوافها، ثم أقيمت الصلاة فصلى بالناس وأنكر أهل الموسم ذلك من فعله وأعظموه، فعزله الخليفة عبد الملك، وكتب إليه يؤنبه قائلاً: إني لم استعملك لتنتظر بالناس طوف عائشة بنت طلحة"،(٣٨) فقال الحارث: ما أهون والله غضبه إذا رضيت! والله لو لم تفرغ من طوافها إلى الليل لأخرت الصلاة إلى الليل. فلما قضت حجها أرسل إليها: يابنة عمي أَلِمِّي بنا أوعدينا مجلسا نتحدث فيه، فقالت: في غد أفعل ذلك، ثم رحلت من ليلتها(٣٩) ".

ولا سبيل للشك بهذا الرواية فهي تحدث في موسم الحج والناس شهود، وفيها عزل من ولاية مكة. وهي تظهر لنا لونا جديدا من ألوان الحياة الاجتماعية الواضحة فقصة تعشق الحارث لعائشة مشهورة وهي تعلم ذلك، ويبدو أنها قد استعانت بضعفه ذاك وطلبت منه أن يؤخر الصلاة حتى تتم طوافها، ولأن هذا الطلب يجاوز الحد وليس فيه من الظرف شيء وتلبيته كسر موعد الصلاة، ولذلك فإن الناس الذين تفهموا قصص الحب البريئة في بيئتهم قد وقفوا هنا أمام منكر واضح، وهو تأخير الصلاة، وأمام موعد الصلاة وقدسيتها تسقط المقامات أيا كانت. وقد أدى هذا إلى عزل العاشق أمير مكة وأمير الحج، ولم يظهر المخزومي ندما على ما فعل ولا أسفا لما حل به من العزل بل اعتبر رضاها عنه غاية المنى، وكأنه أراد أن يظهر لها إلى أي حد هو مستعد أن يذهب ليفوز منها بوعد يجلسان فيه للتحدث والمسامرة، لكنها وقد سمحت لنفسها بطلب أثار غضب الناس، لا يمكن أن تسمح بما يخدش شرفها، وقد كبرت، والعفة واجبة في كل حال، فاحتالت على طلب الحارث المخزومي بالمماطلة وبمساعدة جاريتها. فبعد أن أتمت طقوس الحج خرجت ليلا لتتجنب حرج إلحاحه لمقابلتها، فلربما طمع بسبب تأخيره الصلاة لأجلها بما لا تقدر على إجابته.

ومع ذلك، هناك رواية تظهر الحارث المخزومي حريصا على ألا يفهم من حبه وأشعاره في عائشة بنت طلحة غير النسيب مع تعفف ظاهر عن الفاحشة. فقد روت الأخبار أنه قيل له بعد أن مات عمر بن عبدالله التيمي زوج عائشة، وقبله مصعب بن الزبير: "ما يمنعك الآن منها؟ قال: لا يتحدث والله رجال من قريش أن نسيبي بها كان لشيء من الباطل(٤٠)". وقد شاعت عادة العرب على أن لا يزوجوا بناتهم من عشاقهن وممن قال فيهن شعرا إثباتا لعفاف البنات، وأنَّهنَّ غير ممسوسات بسوء. والمخزومي هنا ينزل عند هذه العادة فلا يتزوجها كي لا تصيبها تهمة السوء، وقد عُرف عشقه لها. أي براءة؟ وأي مجتمع؟

ولا بد أن نستبين في هذه الروايات انسجاما اجتماعيا، فهي تجمع بين صور تأدية الناس لفرائض الدين كالحج والصلاة، وبين استفراغ أشواق الهوى في أشعار وأغان وأحاديث ومفاكهات – باستثناء طلب تأخير الصلاة طبعًا – حتى لو بُرِّرَ بتأدية طقس ديني آخر في الحج هو الطواف. والواضح الجلي هو أن مصدر هذا الانسجام براءة المجتمع ورفضه العام للمنكر الصريح دون غلو، فهم مؤمنون بالله، يؤدون فرائضه، ويسكنهم يقين راسخ في أنهم في سلوكهم الاجتماعي – باستثناء تأخير الصلاة المستنكر صراحة – لا يجرحون إيمانهم بالله في شيء. ولم يكن مجتمعهم قد أُثْقِل بقوائم الحرام، فبقيت نفوسهم راضية لبداهة وعيهم بأن الأصل في الأشياء الإباحة.

ويبدو أن الحارث المخزومي مثله مثل عمر بن أبي ربيعة وكثيرٌ من شعراء الغزل كانوا يتعشقون الجمال أينما وجد مع تعفف ظاهر احتراما للآداب الاجتماعية وقيم الإسلام، ولا يجدون حرجا في قول الشعر في غير واحدة من الجميلات اللاتي كان بعضهن يعترضن الشعراء عمدًا لإثارة قرائحهم في قول الشعر فيهن ليشتهرن بالجمال ويعرفن، وهي قيمة من قيم مجتمع صدر الإسلام ممتدة من الجاهلية. وكان موسم الحج مسرح هذه اللقاءات المثيرة، إلى حد أن موسم الحج وما يجري فيه من مظاهر اجتماعية يحتاج لبحث مستقل. وندلل على هذا الأمر برواية تتصل بالحارث المخزومي نفسه: "بينا الحارث بن خالد المخزومي واقف على جمرة العقبة إذ رأى أم بكر وهي ترمي الجمرة فرأى أحسن الناس وجها، وكان في خدها خال ظاهر، فسأل عنها فأخبر باسمها حتى عرف رحلها، ثم أرسل إليها يسألها أن تأذن له في الحديث، فأذنت له، فكان يأتيها يتحدث إليها حتى انقضت أيام الحج، فأرادت الخروج إلى بلدها، فقال فيها:

ألا قل لذات الخال يا صاح في الخد
تدوم إذا بانت على أحسن العهد
ومنها علامات بمجرى وشاحها
وأخرى تزين الجيد من موضع العقد
وترعى من الود الذي كان بيننا
فما يستوي راعي الأمانة والمبدي(٤١)".

٦-عائشة وموكب الحج

ولأن الحج كان مناسبة دينية واجتماعية، فقد كان لا بد أن يظهر هذا في سلوك الأثرياء من قريش وغيرهم ممن تدفقت عليهم الأموال كالسيول، فبنوا الدور والقصور واستحدثوا الحدائق والمنتزهات، وحفروا الأنهار والترع وتبدلت حياتهم الاجتماعية وتطورت قيمهم(٤٢)، وتنافسوا في إظهار الأبهة والثراء، وكانت عائشة أحد هؤلاء الذين ورثوا المال الغزير وفازت بأعطيات

خلفاء الأمويين، وظهر ثراؤها في مجالس غناء فخمة وأعطيات ثمينة(٤٣). وظهر كذلك في موكب الحج، وتقول إحدى الروايات إنها دخلت ذات مرة على الوليد بن عبد الملك وهو بمكة فقالت:

"يا أمير المؤمنين، مر لي بأعوان، فضم إليها قوما يكونون معها، فحجت ومعها ستون بغلا عليها الهوادج والرحائل فعرض لها عروة ابن الزبير فقال:

عائش يا ذات البغال الستين أكل عام هكذا تحجين

وفي رواية أخرى أن حاديها هو الذي قال بيت الشعر ببعض التعديل عندما حجت هي وسكينة بنت الحسين، وقد قالها متباهيا على سكينة:

عائش يا ذات البغال الستين لا زلت ما عشت كذا تحجين

فأجابها حادي سكينة بعد أن غمها ما سمعت:

عائش هذي ضرة تشكوك لولا أبوها ما اهتدى أبوك

فأمرت عائشة حاديها أن يكف فكف(٤٤)"

وكل هذا يدخل في باب التباهي وهو عند النساء أصرح وأوضح. وقد بهر موكب عائشة بنت طلحة حتى عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة الخليفة، فقد طلبت أن تحج فأذن لها وقال لها عبد الملك بن مروان منبها: "ارفعي حوائجك واستظهري، فان عائشة بنت طلحة تحج، ففعلت، فجاءت بهيئة جهدت فيها أن يكون موكبها الأبرز والأكثر فخامة. فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها وفرق جماعتها. فقالت: أرى هذه عائشة بنت طلحة، فسألت عنها فقالوا: هذه خازنتها. ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك فقالوا: عائشة، فضغطهم، فسألت عنه فقالوا هذه ما شطتها. ثم جاءت مواكب على هذا إلى سننها ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة عليها القباب والهوادج. فقالت عاتكة: ما عند الله خير أبقى(٤٥)". ولا شك أن هذه رواية شعبية، فيها مبالغة وخيال، تعكس ما يرتبط بالغنى وأبهة الملك والمال، وأيا كانت المبالغة فيها فلا ريب أنها تقوم على أصل واقعيٍّ ما.

٧-التنزه والرماة والشعر

وفي أخبار عائشة صور اجتماعية أخرى منها أنه كان لها في الطائف مال عظيم وقصر تتنزه فيه وتجلس بالعشيات، ويتبارى رماة القوس بين يديها ويعرج عليها الشعراء والمشهورون فتحادثهم بما عرف عنها من علم غزير بأخبار العرب وبالشعر، ديوان العرب ومخزن أشواقهم، وتسألهم عن أحوالهم أو عما تعرف من أشعارهم، كما فعلت مع النميري الشاعر، فقد سألته أن ينشدها مما قال في محبوبته زينب وهي ابنة عمه فذكر لها أبياتا بعد تمنع وإصرار منها، إلى أن وصل إلى البيت الذي فيه:

تضوع مسكا بطن نعمان إذ مشت به زينب في نسوة خفرات

فاستحسنت ما قال وشهدت له بالكرم والطيبة والتُّقى والدِّين، وأمرت له بألف درهم، وجاءها النميري كرة أخرى وقال لها إنه يريد أن ينشدها من شعر هاويها الحارث المخزومي سالف الذكر، ورأى الموالي أنه بذكر الحارث المخزومي قد تخطى حدوده معها وأردوا الوثوب عليه فمنعتهم، وسمحت له بإنشاد شعر الحارث فيها، فاستحسنت بحضور النميري ما أنشدها من قول الحارث الذي تعرفه لا شك ورأت انه قال قولا جميلا، وأمرت له بألف درهم أخرى وكسته حُلَّتين وطلبت إليه مع ذلك أن لا يأتي ثانية(٤٦).

فهل تستطيع امرأة في زماننا هذا أن تفعل ما فعلته عائشة بنت طلحة في صدر الإسلام حتى وهي في مثل خصالها وموقعها الاجتماعي وغناها؟ لقد شط بنا الزمان وتغيرت أمزجة القوم وعاداتهم وأذواقهم، ويحتاج الأمر لو أريد له أن يحدث إلى جرأة وإقدام وجهد نفسي واجتماعي. وليس هذا القول دعوة لأحد من أي نوع، بل تذكير بأننا نجهل التاريخ الاجتماعي لصدر الإسلام، وتسيطر على أذهاننا صورٌ فقهية لا علاقة لها بزمن صدر الإسلام وتفاصيل حياة القوم يومئذ، فنظلم أنفسنا بالتسابق على مجاراة زمن لم نستوعبه، واهمين أننا نقلده، وأحرى أن يجري التسابق لمعرفته أولا على نحو واقعي لتحرير وعينا مما علق به من صور باطلة مغشوشة. إن هذه الصور التي نستعرضها الآن كانت من الناحية الاجتماعية من بديهيات القوم حتى وإن كانوا يستحدثونها، فلم نقرأ إزاء هذه المرويات ما يفيد الغضب أو الاستهجان أو النكير عليها، وقد ذكر مثل هذا الغضب والاستهجان عند ما يحدث ما لا يقبل كتأخير الصلاة.

٨-بقية أخبار عائشة

وتذهب الروايات في تسجيل أخبار عائشة وغيرها إلى حد الحديث عن كيفية المعاشرة الجنسية مع الأزواج، وينقل حوار لعائشة مع امرأة قدمت من الكوفة ودخلت بيت عائشة، فسمعت معاشرتها لزوجها وأتت بالأعاجيب، فاستغربت المرأة ذلك وقالت لها: "أنت في نفسك وموضعك وشرفك تفعلين هذا! فقالت إنا نتشهى لهذه الفحول بكل ما حركها وكل ما قدرنا عليه(٤٧)". وفي مجلس غناء أعدت له عائشة بأبهة وفخامة تغنيها إحدى مغنيات المدينة المشهورات (عزة الميلاء) بيتين من الشعر هما:

وثغر أغر شتيت النبات
لذيذ المقبل والمبتسم
وما ذقته غير ظن به
وبالظن يقضي عليك الحكم

فيجيب زوجها مصعب، وكان يستمع إلى مجلس الغناء من وراء الستر، كما تقول الرواية: "يا هذه إنا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفت(٤٨)".

وتصف الروايات حتى كبر عجيزتها، فيرد أنها شوهدت بأحد المساجد جالسة: "ثم ذهبت تقوم ومعها امرأتان تُنْهِضَانها فأعجزتها إليتاها من عظمهما فقالت: أنى بكما لمعناة". وذُكر لها قول الحارث:

وتنوء تثقلها عجيزتها نهض الضعيف ينوء بالوسق(٤٩)

كما روي أن إحدى الوصيفات زارت عائشة، ثم قالت: "فرأيت عجيزتها من خلفها وهي جالسة كأنها غيرها، فوضعت أصبعي عليها لأعلم ما هي، فلما وجدت مس أصبعي قالت: ما هذا؟ قلت: جُعِلت فداءك! لم أدر ما هو، فجئت لأنظر فضحكت وقالت: ما أكثر من يعجب مما عجبت منه(٥٠)". وهو جواب بسيط وعادي وفيه قبول وإقرار للعجب. وفي رواية أخرى أن شخصًا نعت بابن اسحق دخل على مجلس عائشة، حيث كانت تستقبل الناس غير محتجبة فقال: "فلقد رأيتني دخلت على عائشة وكانت متكئة، ولو أن بعيرا أُنيخ وراءها ما رُئي"(٥١). ومع ذلك فقد كانت مرغوبة وفي هذا مؤشر على أذواق القوم في المرأة المشتهاة.

وهناك رواية يحار المرء فيها متعلقة بخطبة النساء، ومفادها أن الخاطبة تطلب من الفتاة التجرد عن ثيابها لتقدر على وصفها وصفًا كاملاً، وقد وردت هذه الرواية متصلة بثلاث نساء بينهن عائشة بنت طلحة. ففي كتاب الفاضل للمبرد (٢٨٦هـ) يذكر: "أن عبد الله بن جعفر والحسين بن علي وعبد الله بن عمر ومصعب بن الزبير وجّهوا بحُبَّى المدنيّة إلى أربع نسوة تخطبهن لهم عائشة بنت طلحة وسُكينة بنت الحسين، وأم البنين، وامرأة ذهب عني اسمها، فأتتهن حُبَّى وأعلمتْهن بما قصدت له، فكلٌّ قال: ما فيمن ذكرتِ أحد يرغب عنه، قالت لهن: ولكن بيني وبينكن شريطة، قلن: وما هي؟ قالت: تمشي كل واحدة منكن بين يديّ متجرّدة. فأبين عليها، فأدلّت عائشة بنت طلحة بما عندها من الجمال، فتجرّدت ومشت. فلما رجعت حُبَّى إليهم أعلمتهم بما رجعت به منهن ومن عائشة، فقالوا: كيف رأيتِها حين تجرّدت؟ قالت: مشت فما بقيت في بدنها شحمةٌ إلا تحركت، فتزوجها مصعب بن الزبير".(٥٢)

ومثل هذه الرواية وردت متصلة بإحدى مغنيات المدينة هي عزة الميلاء، إذ ذكرت لعائشة إنها تريد أن تصفها لخُطَّاب فيهم مصعب بن الزبير وطلبت منها أن تتجرد من ثيابها، وأنها أجابتها إلى ما طلبت. كما ذكر مثل هذا التجرد في سياق طلب ضرة عائشة لزوجها الأخير عمر بن عبيد الله التيمي، فقد كان متزوجا أيضًا من رملة بنت عبدالله، فأرادات أن ترى عائشة متجردة دون علمها لتقف على جمال جسدها، فاستعانت بجارية لأجل ذلك، وتقول الرواية إن عائشة وافقت على التجرد بعد أن وقفت على خبر ضرتها، فندمت الضرة لرؤيتها عارية لأنها رأت فيها من الجمال الجسدي ما لا تملكه(٥٣). ونحن نقف إزاء روايات التجرد هذه موقف المشكك، لأنها نادرة وليست ضمن مألوفات القوم، والراجح أنها من الخيال الشعبي المتصل بمواصفات النساء المرغوب فيهن ليس إلا.

خَاتِمَةٌ

هذه هي عائشة بنت طلحة، سيدة العفاف والحرية، وتُعَدّ مع سكينة بنت الحسين وأخريات ممثلات لواقع اجتماعي في صدر الإسلام تعامل مع المظاهر المروية ببداهة جعلت الناس يتحدثون عنها ويثبتونها في روايات وصلت إلينا، وبفضل هذا النقل والتدوين اللذين أتاحهما أيضًا ذوق اجتماعي منفتح غير قادح للمروي، استطعنا الوقوف على هذه الصور التي نرجو أن تعين في تصحيح الصورة لصالح مجتمع يمجد الحياة ويوازن بتلقائية بريئة بين العفاف والحرية.

ومن بين أبرز نتائج البحث هو تنقية أخبار عائشة من المبالغات التاريخية والخروج بصور واقعية تقوم على الفحص والنقد والتحليل، ثم استعمال تلك الصور في إبراز مشاهد متنوعة من التاريخ الاجتماعي لصدر الإسلام تسهم في التعرف عليه على نحو أدق وأعمق مما يشيع عنه، من ذلك: التنوع في أشكال الظهور الاجتماعي للمرأة، وبداهة السفور والمحادثات المشتركة بين النساء والرجال، والتباهي بمواكب الحج، وشيوع أخبار الهوى في إطار اجتماعي غير مثقل بالمحرمات والعيوب مع سيادة أشكال العفاف والابتعاد عن المنكرات الصريحة. وكل هذه الصور تخدم في الخلاصة تصحيح التصورات عن صدر الإسلام وأهله، وتظهر أهمية دراسات التاريخ الاجتماعي لصدر الإسلام دراسة علمية صرفه، وهي التي ستبين مستويات التقارب والتباعد بين ثقافة مجتمعاتنا المعاصرة وثقافة صدر الإسلام، وستكشف مستويات إسقاط معايير ثقافتنا المعاصرة على زمن لا يشبه ما نحن عليه اليوم في مواقفنا إزاء المرأة ومجالها الاجتماعي.

الهَوامِشُ:

(١) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: **عيون الأخبار**، ج١، القاهرة، دار الكتاب العربي، مصور عن دار الكتب المصرية لطبعة عام ١٩٢٥، ص ٢٥٨.

(٢) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين: **الأغاني**، ج١١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٤، ص ١٢٠. ومن هؤلاء الذين تدخلوا للصلح أبو هريرة، حين كانت بالمدينة، والشاعر ابن قيس الرقيات، وكان صديقًا وملازمًا لمصعب بن الزبير، والمشهور بـ (أشعب)، ثم كاتب مصعب بن الزبير ابن أبي فروة. وقد تكرر ذكر هذا الخبر في عدد من المصادر التي عرضت لسيرة عائشة.

(٣) ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد العسقلاني: **تهذيب التهذيب**، ج١٢، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٣، ص٤٣٧.

(٤) الأصفهاني، ج١١، ص ١٢٠.

(٥) ابن الجوزي، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، ج١، ص ٣٢٥. وقد ذكر المحقق نقلاً عن الخرائطي أن إسناد هذا الخبر مظلم، ومعناه أن راويه ليس مشهورا، وهو ما يعني احتمال كذب الخبر.

(٦) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٧، ط٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧، ص١١٨.

(٧) الأصفهاني، ج١١، ص ١٢٩-١٣٠.

(٨) الأصفهاني، ج١١، ص ١٢٨.

(٩) الأصفهاني، ج١١، ١٢٣.

(١٠) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: **أنساب الأشراف**، ج ١٠، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦، ص١٣٩.

(١١) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد: **الفاضل**، ط٢، دار الكتب المصري، القاهرة، ١٩٩٥، ص ١١٩.

(١٢) انظر: الحوفي، أحمد محمد: **المرأة في الشعر الجاهلي**، ط ٢، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٣. ص ٣٦٩ وما بعدها. وانظر أيضًا: مهران، محمد بيومي: **مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة**، مستل من مجلة كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ١٩٧٧، ص ٢٢٥-٢٥٩. وانظر كذلك: الزيات، حبيب: **المرأة في الجاهلية**، القاهرة، طبع مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٣. ص ١٨ وما بعدها.

(١٣) في كتاب الفاضل للمبرد السالف الذكر فصل بعنوان " فصل آخر في الجمال"، وهو مجرد مثال ليس إلا.

(١٤) المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٣٨٠.

(١٥) الأصفهاني، ج١، ص ١٩٩.

(١٦) من بين المراجع المتاحة ينفرد ابن عبد البر بذكر اسم هذا الفقيه، لكنه لا يورد لقبه، بل يقول: "نظر ابن أبي ذئب إلى عائشة ....." ج٧، ص ١١٨.

(١٧) هو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، لقب بالعرجي لأنه سكن عرج الطائف، "وكان من شعراء قريش وممن شهر بالغزل منها، ونحا نحو عمر بن أبي ربيعة في ذلك وتشبه به فأجاد". الأصفهاني ١٩٩٤، ج١، ص ٢٩٨-٢٩٩.

(١٨) شقير، نقولا: **العرجي وشعر الغزل في العصر الأموي**، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٦، ص ٥٨.

(١٩) الأصفهاني، ج١، ص ٣١١-٣١٢. وفي بيتي الشعر للعرجي يرد البيت الأول بتبديل بسيط. فبدلا من أماطت كساء الخفر، يرد أماطت كساء الخز، ويبقى المعنى واحدًا.

(٢٠) الحجلة (بالتحريك) موضع في البيت له قبة ويزين بالثياب والستور والأسرة، وهو موضع تجلس فيه العروس بكامل زينتها.

(٢١) الكارة من الثياب: ما يجمع ويشد وسميت كارة القصار بذلك لأنه يكور ثيابه في ثوب واحد ويحملها ويكون بعضها فوق بعض (انظر هامش التحقيق لكتاب عيون الأخبار ج٤، ص ٢٢.

(٢٢) ابن قتيبة، ج ٤، ص ٢٢.

(٢٣) البلاذري، ج ١٠، ص ١٣٨.

(٢٤) ابن عبد ربه: **العقد الفريد**، ج٧، ط٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧، ص١١٩.

(٢٥) الزجاجي، أبو القاسم: **أخبار أبي قاسم الزجاجي**، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨٠، ص ٢٣٦.

(٢٦) المعافى بن زكريا النهرواني: **الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي**، ج٢، بيروت، عالم الكتب، ١٩٩٣، ص ١٣٨.

(٢٧) ابن منظور، محمد بن مكرم: **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، ج٢٠، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٦، ص ١٧٣.

(٢٨) البري، محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني: **الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة**، ج٢، الرياض، دار الرفاعي، ١٩٨٣، ص ٣٠٧-٣٠٨.

(٢٩) البلاذري، ج١٠، ص ١٩٢.

(٣٠) الأصفهاني، ج١١، ص ١٢٤.

(٣١) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: **المنتظم**، ج٧، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢، ص٢٢٧.

(٣٢) ابن منظور، محمد بن مكرم: **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، ج٢٠، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٦، ص ١٧٥.

(٣٣) ابن منظور، ج٢٠، ص ١٧٦.

(٣٤) ابن منظور، ج٢٠، ص ١٧٥.

(٣٥) الأصفهاني، ج٣، ص ٢١٧.

(٣٦) البلاذري، ج١٠، ص١٤٠.
(٣٧) ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد: **التذكرة الحمدونية، ج٦، بيروت**، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦، ص ١٧٩.
(٣٨) البلاذري، ج١٠، ص ١٤٠
(٣٩) الأصفهاني، ج٣، ص ٢٢١. انظر أيضا: الأصفهاني، ج١١، ص ١٢٩.
(٤٠) الأصفهاني، ج٣، ٢٢٨.
(٤١) الأصفهاني، ج٣، ص ٢٣٠.
(٤٢) جبور، جبرائيل: **عمر بن أبي ربيعة**، ج١، بيروت، دار العلم للملايين،١٩٧٩، ص ٢٩ وما بعدها.
(٤٣) الأصفهاني، ج١١، ص ١٢٤.
(٤٤) الأصفهاني، ج١١، ص ١٢٧.
(٤٥) الأصفهاني، ج١١، ص ١٢٧.
(٤٦) ابن حمدون، ج٦، ص١٧٧-١٧٨. الأصفهاني، ج١١، ص١٢٧.
(٤٧) الأصفهاني، ج١١، ص ١٢٥.
(٤٨) الأصفهاني، ج١١، ص ١٢٤.
(٤٩) الأصفهاني، ج١١، ص ١٢٩.
(٥٠) الأصفهاني، ج١١، ص ١٢٨.
(٥١) ابن منظور، ج٢٠، ص ١٧٢.
(٥٢) المبرد، الفاضل، ص ١١٨-١١٩.
(٥٣) الأصفهاني، ج ١١، ص ١٢٦.